

« الشعر تجارة العرب » .

كلمة تناقلها النقاد من قديم ، حتى وصلت إلى « ابن رشيق » في القرن الخامس الهجري ، فسجلها في كتابه (العمدة في صناعة الشعر ونقده) ^(١) قيمة نقدية مقررّة ، يمكن أن تفسر لنا كثيراً من الأحكام والمقاييس التي أقاموا عليها وزنهم للشعر وتصرفهم في أقدار الشعراء ومراتبهم .

كما يمكن أن تفسر لنا كذلك اضطراب مقاييسهم وتناقض أحكامهم ، وبخاصة في الشعر الجاهلي الذي لم يسعفهم على ما استقر في أذهانهم وأذواقهم من مفهوم للأدب ووظيفته .

وأرجئ بيان هذا كله حتى نحتكم إلى تراثنا من الأدب الجاهلي ، لنرى هل كان الشعر حقاً تجارة العرب ؟ وهل أراد المجتمع العربي لشعرائه أن يجعلوا الشعر بضاعة ، ويستفروغوه في المدح ؟

وإذ نمضي إلى نقطة البدء مطمئنين إلى ما لدينا من تراث أدبي ، نرى المجتمع العربي في ذلك الزمن البعيد قد حدد للشعر مهمته ، وهي التعبير عن الجماعة ، كما حدد للشاعر مكانه حين وكل إليه القيادة المعنوية لقومه . وبمقدار ما كان لهذه المهمة من جلال وخطر ، كانت القبيلة تحتفل بنبوغ شاعر فيها ، وتتقبل التهنئة فيه ، وتعدّه ذخيرة عزيزة ^(٢) وقوة لها .

كان الشعر إذ ذاك سلاحاً من أمضى الأسلحة في حياة لا مكان فيها إلا للقوى الغالب .

وكان اعتزاز القبيلة بشاعرها أكبر من اعتزازها بالفارس الذي يحمي الحمى بسيفه . وهو وضع قضت به ظروف الحياة في ذلك العهد الجاهلي ، ودفعت إليه حاجة القبيلة إلى قيادة وجدانية ، تبث في أبنائها روح المروءة والنجدة وإباء الضيم ، وتحذوهم في صراعها من أجل الوجود والبقاء . وهذا يفسر لنا ما نقلته إلينا

(١) ابن رشيق : العمدة - ٢١/١ ط هدية .

(٢) اقرأ باب (احتفاء القبائل بشعرائها) في العمدة لابن رشيق : ٢٧/١ .